

من صحابة الرسول

المجموعة الثانية

١٣

خَبَابُ  
بْنِ الْأَرْتِ

نانيس محمد عزت

## خَبَابُ بْنُ الْأَرْتِ

رَجَعَ إِسْمَاعِيلُ مِنَ النَّادَى مُرْهَقًا ، وَارْتَمَى عَلَى  
مَقْعَدِ وَكَيْرٍ مُرِيحٍ ، وَقَالَ لَوَالِدِهِ :  
— قَدْ تَعِبْتُ ، فَإِنَّ التَّدْرِيْبَ الْيَوْمَ كَانَ شاقًّا .

ابْتَسَمَ وَالِدُهُ وَقَالَ : اسْتِذْكَارُ الدَّرُوسِ شاقٌّ مُبِيلٌ ،  
وَتَدْرِيبَاتُ السَّيَّاحَةِ شاقَّةٌ مُرْهِقَةٌ ، فَمَا هُوَ الشَّيْءُ الَّذِي  
تَرَاهُ سَهْلًا مُبِيعًا ؟ الْجُلُوسُ عَلَى مَقْعَدِ مُرِيحٍ ،  
وَمُشَاهَدَةُ التَّلِفِيزِيُونِ بِمِثْلِ الْعَجَائِزِ ؟

قَالَ إِسْمَاعِيلُ : لَمْ أَقْصِدْ ذَلِكَ يَا أَبِي ، فَإِنَّا أَحِبُّ  
السَّيَّاحَةَ ، وَلَكِنْ مُدْرِبُ السَّيَّاحَةِ أَهْلَكُنَا مِنْ ائْتَعَبَ ،  
فَقَدْ فَرَضَ عَلَيْنَا أَنْ نَقْطَعَ حَمَامَ السَّيَّاحَةِ ذَهَابًا وَإِيَابًا  
أَكْثَرَ مِنْ ثَلَاثِينَ مَرَّةً .

قال والده : لا تنس يا إسماعيل أن بطوالة  
الجمهورية على الأبواب ، ويجب أن يكون فريق  
السباحة على أتم استعداد لها . أين الغرعة والمضبرة  
وقوة التحمل ؟ فأت تستصعب السباحة في المياه  
الباردة المعبثة ، في هذا الحر اللافح ، وتعجز عن  
تحملها ، لما بالك بمن كوى بالنيران ، وبالحديد  
المحمى ، وسحب على وجهه فوق رمال الصحراء  
المتلتهبة ، ومع ذلك صبر وتحمل ، ولم يظهر الألم  
لأعدائه .

تعجب إسماعيل وقال : أحقا هذا ؟ ومن كان ذلك ؟  
تدخلت والده إسماعيل في الحديث فقالت : إنه لم  
يكن شخصا واحداً يا إسماعيل ، بل العشرات  
والعشرات من الفقراء والعبيد والضُعفاء ، الذين آمنوا  
بدعوة محمد — صلى الله عليه وسلم — ولم يكن

لديهم القوة أو المدجأ الذي يحميهم من بطش الكفار .  
ولكن يظهر أن والدك يقصد شخصاً بعينه ، فمن با  
تُرى الذي يقصده ؟

قال والده : نعم ، فانا أقصد الحجاب بين الأرت .  
قالت والدته : حقاً ، فهو مثال فريد في الفداء  
والعطاء .

قال إسماعيل : ولكنى لا أعرف قصته ، فهل  
تحكيها لي يا أبى ؟

قال والده : نعم بكل سرور ، فحياة الحجاب  
الأرت قدوة يُحتذى بها . فقد عاش الحجاب حياة الرق  
والعبودية منذ سنواته الأولى ، حين أغار الأعداء على  
قبيلته بنى تميم ، وأخذوه بين السبايا ، وباعوه في  
سوق الرقيق عكة . وكان لسوء حظهِ أن اشترته من  
السوق أم أنمار الخزاعية . اشترته لتدفعه إلى العمل

وتكسب من ورائه . فدفعت به إلى أحد الحذادين  
 ليتعلم منه صناعة السُوف ، وهي تجارة رابحة ، لم  
 يكن يستطيع عنها الرجال أو الشباب عند خروجهم  
 للصيد أو للقتال ، فهي حرفة تدبر على صاحبها المال  
 الوفير .

وحين بلغ خباب سن الشباب ، واشتد عوده ،  
 وأتقن صناعة السُوف ، استأجرت له أم أنمار دكاناً  
 يعمل فيه ، وكانت تروقه دائماً بطلب الدراهم .

وأقبل الناس على شراء السُوف من الخباب ،  
 وذلك لمهارته في صنعها ، ولما كان يتخلى به من  
 أمانة وصدق وإخلاص .

وظل خباب على تلك الحالة ، يقف أمام الكور  
 يشعل النار بنفسه ، ثم يدخل الحديد في النار فينصهر

وَيُصْبِحُ عَجِينَةً لَّيَّةً فِي يَدِهِ ، يُشَكِّلُهَا كَيْفَ يَشَاءُ ،  
مِدَّةَ سَنَتَيْنِ أَوْ أَكْثَرَ .

إِلَى أَنْ سَطَعَ النُّورُ فِي مَكَّةَ فَجَاءَ ، وَرَاحَ النَّاسُ  
يَتَنَاقَلُونَ خَيْرَ الرِّسَالَةِ الَّتِي جَاءَ بِهَا مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ  
- صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَأَشْرَقَ فَوَاضَ الْخَبَابُ ،  
وَأَنْشَرَحَ صَدْرُهُ لِمَا دُمِيَ الدِّينَ الْجَدِيدَ السَّمْحَةَ ، فَاسْرَعَ  
إِلَى مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - يُعْلِنُ إِسْلَامَهُ .

سَأَلَ إِسْمَاعِيلُ : أَكَانَ خَبَابٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْأَوَائِلِ ؟  
قَالَتْ وَالْإِذَّةُ إِسْمَاعِيلُ : نَعَمْ ، بَلْ كَانَ مِنَ الْعَشْرَةِ  
الْأَوَائِلِ الَّذِينَ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ .

وَقِيلَ إِنَّ تَرْتِيبَهُ فِيهِمْ هُوَ السَّادِسُ ، إِذْ أَسْلَمَ قَبْلَ أَنْ  
يَتَّخِذَ الرُّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَأَصْحَابِهِ ،  
دَارَ الْأَرْقَمِ مَقَرًّا لَهُمْ .

قَالَ وَاللَّهِ : صَدَقْتُ ، وَلَمْ يَكْتَفِ الْخَبَابُ بِإِسْلَامِهِ ،  
 بَلْ أَعْلَنَهُ وَأَظْهَرَهُ عَلَى الْمَلَأَ ، بِرَغَمِ عِلْمِهِ بِمَا مَيَّلَاقِيهِ  
 مِنْ أَشَدِّ أَنْوَاعِ الْعَذَابِ وَالتَّكْيِيلِ ، فَلَمْ يَكُنْ يَشْغُلُ بِآلِهِ  
 عِنْدِي إِلَّا النَّوْزُ الَّذِي مَلَأَ قَلْبَهُ . وَعِلِمْتُ أُمُّ أَعْمَارٍ  
 بِإِسْلَامِهِ ، فَاسْتَشَاطَتْ غَضَبًا ، وَوَاجَهَتْهُ هِيَ وَآخُوهَا  
 « سَبَّاحُ بْنُ عَبْدِ الْعَزْزِيِّ » . وَبَعْضُ فَيَّيَانِ خُرَاعَةٌ .  
 وَمَالُهُ سَبَّاحُ :

— بُشَاعُ أَنْكَ صَبَاتٌ وَتَبِعْتَ غُلَامَ بَنِي هَاشِمٍ .  
 فَرَدُّ عَلَيْهِ خِيَابٌ فِي هُدُوءٍ : مَا صَبَاتٌ وَإِنَّمَا آمَنْتُ  
 بِاللَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَتَرَكْتُ عِبَادَةَ أَصْنَابِكُمْ ،  
 وَشَهِدْتُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ .  
 وَكَانَتْ كَلِمَاتُ خَبَابٍ بِمَثَابَةِ الطُّوْرِ الْأَخْضَرِ لِسَبَّاحٍ  
 وَمِنْ مَعِهِ ، فَاتَهَاوُوا عَلَى خَبَابٍ حَضْرِيًّا وَرَكَلًا ، وَقَذَفُوهُ

بما وَصَلت إليه أيديهم من مطارقٍ وقطع الحديد ، حتى  
هوى على الأرض ، وسقط مغثياً عليه .

وهكذا ضربَ حَبَابٌ لنا أفضلَ مثالٍ للصبر والجلد  
وقُوَّةِ التحمُّل ، وصلابة العزيمة وصدق الإيمان بالله .

فقد تَفَنَّتْ أُمُّ أُنْجَارٍ وأخوها سَبَاعٌ في تعذيب  
الحَبَابِ ، فكَوَّوه بأَسْيَاحِ الحديدِ المُحَمَّاةِ ، وأَبْسَوْهُ  
دُرُوعَ الحديدِ ، وصَهَرُوهُ في حرارةِ الشمسِ الحاميةِ .  
وأَكْثَرَ من ذلكَ أَنَّهُمْ حَمَّوْهُ الجِجَارَةَ بالنَّارِ ،  
وَالصَّقَوْهُ بظَهْرِ العاري حتى ذَهَبَ لَحْمُهُ .

قال إسماعيلُ مُشَمِّرًا : كَفَى يَا أَبَى أَرْجُوكَ . إِنَّ مَا  
تَصِفُهُ من ألوانِ العَذَابِ لَا يُحْصَلُ . فكيفَ يَسْتَطِيعُ  
إنسانٌ أَنْ يَتَحَمَّلَ كُلَّ هذا العَذَابِ ؟



قال والبذة : لقد تحمَّله السَّحابُ بصبرٍ وجلَد .  
 فطالما حاول جلاذوه انزعاجَ كلمةٍ منه تنصُرُ آلهتهم ،  
 حتى إذا اشتدَّ به العذابُ سأله : ماذا تقولُ في مُحَمَّد ؟  
 أجاب : هو عبدُ الله ورسوله ، جاءنا بدينِ الهدى  
 والحق ليخرجنا من الظلماتِ إلى النور .

فيسمعون في تعذيبه ويعاودون سؤاله : وماذا  
 تقولُ في اللَّاتِ والعزى ؟

كان رده : صَمَانِ اصْمَانِ ابْكَمَان ، لا يصُراَن ولا  
 يَنْقَعان .

فلم يزدْهم رده إلا غصبا ، واسمعروا في تعذيبه بما  
 لا طاقة للبشر أن يحتمَّله .

ولم تكن أمُّ أغارٍ أفضلَ من أخيها سباع ، فكانت  
 تحمى قطعَ الحديدِ في الموقدِ الذي يعملُ عليه غيَّاب ،  
 وتضعُها على رأسه حتى يُغمى عليه .

فإذا رآه الرسول - صلى الله عليه وسلم - كذلك ،  
أسفَ لحاله ، فلم يكن يملك أن يمنع عنه العذاب ،  
ورفع كفيه إلى السماء ودعا له : اللهم انصر حَبَابًا .  
و شاء الله فلم تمضِ إلا بضعة أيام ، حتى أصبحت أمُّ  
أنمارٍ سُعار ، جعلها تعوى مثل الكلاب ، وقيل لها إنه  
لا علاج لها إلا أن يُكوى رأسها بالنار .

وهكذا شربت من نَفْسِ الكَّاسِ التي طالما سقتهَا  
لحَبَاب ، وقاسى رأسها آلامَ الحديدِ المُحمى ، إذا  
أُصِبحَتْ وإذا أُمِسَتْ .

قال إسماعيل : أحسن ! إنها تستحق ذلك وأكثر ، لهذا  
اللهُ يُمهِّل ولا يهمل ، ولعل النار تُذهب عقلها المُتَحَجِّر .  
وماذا عن أخيها مَبَاع ؟ ماذا كان من أمره ؟

قال والده : أخذ حمزة بن عبد المطلب بشارِ حَبَاب  
من مَبَاع ، فعاثَلَهُ بِضَرْبَةِ قَائِلَةٍ ، قضت عليه يوم أُخِذ .

قَالَ إِسْمَاعِيلُ : حَمْدًا لِلَّهِ ، فَقَدْ نَالَ كُلُّ مِنْهُمَا مَا يَسْتَحِقُّ مِنْ عِقَابٍ .

قَالَ وَاللَّهِ : وَرَغِمَ مَا لِقِيَهِ حَبَابٌ مِنْ غَذَابٍ ، كَانَ دَائِمًا حَرِيصًا عَلَى حُضُورِ مَجَالِسِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَحَفِظَ مَا يَنْزِلُ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ أَوَّلًا بِأَرْلٍ ، وَدِرَاسَةً كُلَّ مَا يَتَعَلَّقُ بِالَّذِينَ . كَمَا كَانَ حَرِيصًا عَلَى نَشْرِ الَّذِينَ وَتَعْلِيمِ إِخْوَانِهِ مِنَ الْمُسْتَضْعِفِينَ ، الَّذِينَ كَانُوا يَكْتُمُونَ إِسْلَامَهُمْ خَوْفًا مِنْ بَطْشِ قُرَيْشٍ ، فَكَانَ يَذْهَبُ إِلَيْهِمْ فِي بُيُوتِهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْقُرْآنَ .. أَتَعْلَمُ يَا إِسْمَاعِيلُ أَنَّ كَانَ حَبَابِ الْفَضْلِ فِي إِسْلَامِ الْفَارُوقِ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ ؟

قَالَ إِسْمَاعِيلُ : كَيْفَ ذَلِكَ يَا أَبِي ؟ كَيْفَ لَذَلِكَ الْعَبْدِ الضَّعِيفِ أَنْ يَصِلَ لِعُمَرِ بِقُوَّتِهِ وَجَبَرُوتِهِ ؟ أَوْ لَمْ يَكْفِهِ مَا لَقِيَهِ مِنْ غَذَابٍ ؟

ابْتَسَمَ وَالِدُهُ وَقَالَ : إِنَّ لَذَلِكَ قِصَّةً . فَبَيْنَمَا كَانَ الْحَبَابُ ذَاتَ مَرَّةٍ عَبْدَ فَاطِمَةَ أُخْتِ عُمَرَ ، إِذْ حَضَرَ عُمَرُ مُتَقَلِّدًا سَيْفَهُ ، وَهُوَ يَتَوَى الشَّرُّ بِأَخِيهِ وَزَوْجِهَا ، حَيْثُ سَمِعَ أَنَّهُمَا تَرَكََا دِينَهُمَا وَاعْتَنَقَا الْإِسْلَامَ . فَبِعِنْدَمَا كَانَ بِالْيَابِ ، سَمِعَ صَوْتَ الْحَبَابِ وَهُوَ يَقُولُ الْقُرْآنَ ، فَتَأَثَّرَ بِعُذُوبَةِ صَوْتِهِ ، وَعَظَمَةِ مَا سَمِعَ .

وَمَا أَنْ خَطَا دَاخِلَ الْبَيْتِ حَتَّى اعْطَى الْحَبَابُ . وَحَاوَلَ عُمَرُ أَنْ يَأْخُذَ الصَّحِيفَةَ مِنْ يَدِ أَخِيهِ ، وَلَكِنَّهَا مَنَعَتْهُ وَقَالَتْ : يَا أَخِي إِنَّكَ لَنَجَسٌ عَلَى شَرِّكَكَ ، وَهَذِهِ الصَّحِيفَةُ لَا يَمْسُهَا إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ .

فَاغْتَسَلَ عُمَرُ وَتَطَهَّرَ ، وَمَا أَنْ قَرَأَ سُورَةَ طه حَتَّى لَانَتْ سَرِيرَتُهُ ، وَقَالَ : دَلُونِي عَلَى مُحَمَّدٍ .

هَذَا ظَهَرَ التَّحَابُ وَقَالَ : وَاللَّهِ يَا عُمَرُ ، إِنِّي لَا أَرْجُو أَنْ يَكُونَ اللَّهُ قَدْ خَصَّنَكَ بِدَعْوَةِ نَبِيِّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

وسلم - فقد سمعته أمي يقول : اللهم أبدِ الإسلام  
 بأبي الحكم بن هشام ، أو بعمَرَ بن الخطَّاب . وقد  
 كان إسلامُ عمَرَ مكسباً عظيماً للإسلام ، لا يستطيعُ  
 أحدٌ أن ينكره .

\* \* \*

وهاجرَ خَبَّابٌ إلى المدينة مع أقرابه من المسلمين  
 المستضعفين . وفي المدينة ذاقوا طعمَ الراحة لأولِ  
 مرَّة ، منذَ دهرٍ طويل .

وشهدَ خَبَّابٌ جميعَ الغزواتِ مع الرسول - صلى  
 الله عليه وسلم - فكان ناراَ ألهبت من أذاقوه لَهيبها ،  
 وكان موطأ سَلَطَةُ الله على من أذاقوه ضربَ السَّياط .  
 ومنذَ الله في عمْرِ خَبَّاب ، لمعاصرِ جميعِ الخلفاءِ  
 الراشدين ، وعاشَ في رِعايتهم ، جليلَ القدرِ نابه الذكر .

منا قالت والدّة إسماعيل لوالده : لقد قصصت عليه  
جانب الفداء في حياة السجّاب ، فلا تنس أن تُقصّ  
عليه جانب الغطاء والجود .

قال والده : وكيف تنسى أن غيّباً أنصف بآثمه  
أسطورة فداء وغطاء ، فاسمّع يا ولدى !  
اغتنى غيّاب في الشطر الأخير من حياته بعد فقر ،  
وملك ما لم يكن يحلم به من الذهب والفضة ، فانظروا  
ماذا كان من أمره . وضع كل ما يملك من دراهم  
وذناير في موضع من بيته يعرفه المحتاجون ، كما  
يعرفه الفقراء والمساكين ، فكانوا يأتون إلى داره  
ويأخذون ما يريدون ، دون سؤال أو استئذان .

قال إسماعيل مذهشاً ؟ أيعقل هذا ؟

قال والده : ومع ذلك نجدّه يوم وفاته ، خائفاً أن يكون  
الله قد عجل له بترابه في الدنيا ، عن توابه في الآخرة .

ولقي خَبَابٌ وجهَ رَبِّه في السَّنَةِ السَّابِقَةِ والثَّلاثينَ  
 للهجرة . وحينَ مرَّ علىُّ بنُ أبي طالبٍ بقبرِهِ ، دَعَا  
 قائلًا : رَحِمَ اللَّهُ خَبَابًا ، اسَلَّمَ رَاغِبًا ، وَهَاجِرَ طَانِعًا ،  
 وَعَاشَ نَجَاهِدًا ، وَابْتُلِيَ فِي جِسْمِهِ أَهْوَالًا ، وَلَنْ يُضَيَعَ  
 اللَّهُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا .

قالَ إسماعيلُ : إِنَّهُ مِثَالٌ حَيٌّ لِقُوَّةِ التَّحَمُّلِ  
 وَالْمُثَابَرَةِ . فَيَا لِلْقِدَاءِ وَيَا لِلتَّضَجُّعَةِ !

قَالَتْ وَالِدَتُهُ : لَيْسَ وَحْدَهُ يَا وَلَدِي ، بَلْ مَعَهُ  
 الْعَشْرَاتُ وَالْمِنَاتُ مِنَ الْمُسْتَضْعِفِينَ الَّذِينَ تَحْمِلُوا الذُّلَّ  
 وَالْهَوَانَ ، حَتَّى وَصَلَ بِهِمُ الْإِسْلَامُ إِلَى بَرِّ الْأَمَانِ .  
 فَلَوْلَا صَبْرُهُمْ وَجَلَدُهُمْ وَتَحَمُّلُهُمُ الْمَشَاقَّ ، مَا وَصَلُوا  
 إِلَى مَا وَصَلُوا إِلَيْهِ فِي خِدْمَةِ الْإِسْلَامِ .

قالَ إسماعيلُ : شُكْرًا لَخَبَابٍ ، وَلِيَمَنُ مَعَهُ مِنَ  
 الصَّحَابَةِ .